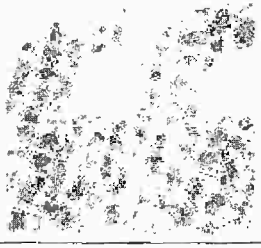

زكي نجيب محمود

المعلم والفيلسوف

زكي نجيب والصحافة

آذن بالرحيل

المثقف والسلطة

المعلم والفيلسوف

فى عيد ميلاده الثامن والثمانين، وهو يخوض معركة عصيبة ضد المرض، ارتدت بى الذاكرة إلى الوراء قرابة ثلاثين عاما أو يزيد ونحن جلوس فى مقاعد الدراسة بكلية الآداب قسم الفلسفة . . وتراءى لى أستاذنا الكبير ومفكرنا العظيم زكى نجيب محمود وهو يدخل علينا لأول مرة قاعة المحاضرات . .

كان فى أوائل الخمسينات من العمر، يحمل حقيبة كتب صغيرة ممتلئة. لم تفارقه طوال سنى دراستنا الجامعية. يلفه هدوء شامل، وحركة وئيدة محسوبة، ونظرة متأملة فاحصة، وجدية عميقة، مشوبة بلمسة حزن غامضة . . تأتى من بعيد وتذهب إلى بعيد . .

كانت دروس الفلسفة التى نتلقاها عن الأساتذة الآخرين، تدور حول مذاهب الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية والأخلاق وماوراء الطبيعة وفلسفة الجمال وعلم النفس والاجتماع . . تحلق بنا

من الأرض إلى السماء، وترتفع بنا من عالم المحسوسات إلى عالم المجردات، ومن الأشياء الملموسة الى الأفكار السابحة، ومن العبارات البسيطة السهلة إلى لغة غامضة معقدة . . تخترق بنا حجب الفكر الإنسانى وهو يسعى فى مدارجه الأولى ومنعرجاته نحو تصور للكون والطبيعة والإنسان.

وما أكثر ما أسرتنا هذه الأفكار والمذاهب وسحرتنا، وشغلتنا عن أنفسنا وعن الواقع المحيط بنا. فنمضى الساعات خارج قاعات الدرس وداخلها فى مناقشات ومجادلات طويلة ساخنة. ونقبل فى جد على ما يلقيه أساتذة كبار من أمثال الأهوانى وعبد الرحمن بدوى وتوفيق الطويل وعثمان أمين ومصطفى خلمى وعلى عبد الواحد وافى ويوسف مراد وعبد الهادى أبو ريدة ثم من بعدهم مصطفى سويف وفؤاد زكريا وغيرهم. كانت الجامعة فى ذلك الوقت تفور وتمور بالأفكار والمذاهب، بينما تضطرب الحياة السياسية خارج أسوار الجامعة بالعواصف والتقلبات فى بداية الثورة.

ولكن هذا الجو الخصب من حرية الفكر والنظر والبحث كان إيذانا بنهاية حقبةوبداية حقبة، أخذت تضيق فيها حدود الحرية والفكر . . حتى أصبحت على ما هى عليه الآن.

وفى هذه الفترة الحافلة عرفنا الدكتور زكى نجيب محمود وتلقينا العلم على يديه . . كان يبشر فى ذلك الوقت بمذهب جديد فى الفلسفة هو المذهب الوضعى الجديد، تعبيرا عن روح عصر العلم . .

بما يخلقه العلم وتطبيقاته من أسباب الحضارة . . وكأنه قد أمسك فأسا كبيرة بين يديه، وراح يضرب بها فى كل اتجاه من اتجاهات المذاهب الفلسفية. يهدمها على رؤوس أصحابها، باعتبارها مجرد لغو لايجدى على أصحابه ولا على الناس شيئا. ليهبط بنا مرة أخرى من السماء إلى الأرض، ومن المجرد إلى المحسوس، ومن عصر النظريات إلى عصر العلوم. وكانت تلك هى البداية فى مشوار طويل حمل مشعله زكى نجيب محمود، وسار من ورائه تلاميذ ومريدون كثيرون . . هم الذين يقدمون إليه اليوم ونحن منهم باقة ورد، مشفوعة بالدعاء وهو على سرير المرض.

زكى نجيب والصحافة

فى صيف عام ٩١ توقف الدكتور زكى نجيب محمود عن كتابة مقاله الأسبوعى فى «الأهرام» بعد أن ألمح لقرائه فى مقال رائع بعنوان «تغريدة البجع» أنه يطلق آخر صيحاته مثل البجعة وهى تؤذن للرحيل.

ولكن علاقة المفكر الكبير بالصحافة بدأت، كما ذكر لى فى لقاء معه لم تتهيأ الفرصة لنشره، وهو لم يزل طالبا فى الجامعة.. قال: «كنا فى صدر الشباب، وكنا تواقين لأن نتعلم ونعرف المزيد، وفكرنا فى أن نعرض أنفسنا على بعض الصحف، لنعمل ونتدرب فيها مجانا.. ذهبنا إلى «الأهرام»، وكنا أربعة من الأصدقاء، وطلبنا مقابلة أنطون الجميل.. استقبلنا الرجل وعرضنا عليه أن نعمل بالمجان فى الأهرام، أن نكتب أو نترجم أو ما يكلفنا به. ولكنه لم يترك لنا فرصة، ونصحنا أن نذهب إلى بيوتنا ونذاكر دروسنا بدلا من التسكع فى دور الصحف.

وخرجنا لا نملك أنفسنا من الدهشة، التى تحولت إلى قهقهة عالية . . لم نيأس وذهبنا فى نفس اليوم إلى دار «السياسة» الأسبوعية التى يملكها الأحرار الدستوريون. وقبل أن نصل إلى غرفة الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة، لمحنا الدكتور حافظ عفيفى قادماً. لم يكن الدكتور هيكل موجوداً، واستقبلنا حافظ عفيفى بترحاب واستمع إلينا، ثم أمر بفتح قاعة الاجتماعات الخاصة بالحزب. وكان يغلب عليها اللون الأحمر بجدرانها وسجاجيدها وكل شئ فيها . . ونصحنا عفيفى بأن نقابل الدكتور هيكل فى اليوم التالى . .

ودعانا الدكتور هيكل فى منزله إلى مأدبة عامرة. وقال لنا إنه يستطيع أن يستفيد بنا فائدة كبيرة. وأن الفكرة التى يقترحها أن يقوم كل شخص منا بدراسة أو جمع مادة موضوع ما، تخرجه دار السياسة بعد ذلك فى صورة «كتيب» فى سلسلة من الكتب التى يقصد بها تنوير الشعب والرأى العام حول قضية معينة. ولم يبق دكتور هيكل معنا إلى النهاية، وترك لنا أن نكمل الطعام بعد أن وزع على كل منا موضوعا للكتابة. وكان نصيبى أن أكتب عن «سميراميس». وذهبت إلى دار الكتب وجمعت وقرأت كل ماوقعت عليه يدى من مادة تاريخية. عكفت على كتابتها وكنت أول من سلم موضوعه إلى الدكتور هيكل، الذى وعد بإصدار الكتيبات وعليها إشارة أو تنويه باسم الكاتب.

وكانت المفاجأة ـ كما يقول د. زكى نجيب محمود ـ حين ظهر الكتيب بعد ذلك. «ولا أذكر أننى جريت فى الشارع كما جريت

يومها إلى بائع الصحف لأشترى أول كتيب شاركت فى تأليفه . . وقلبت صفحاته عسانى أعثر على إشارة لاسمى، ولكنى لم أجد غير إشارة مبهمة تنوه بجهد بعض الشباب دون ذكر اسم محدد. ومازلت احتفظ بهذا الكتيب الذى كان أول وآخر تجربة لى مع الصحافة فى مطلع الشباب.».

أذن بالرحيـــــل

برحيل المفكر والأديب والفيلسوف والعالم الدكتور زكى نجيب محمود، ينطفئ مشعل ساطع من مشاعل الفكر والتنوير فى مصر والعالم العربى . . ويغيب واحد من فرسان الكوكبة التى أثرت الحياة الفكرية والعقلية فى مصر على امتداد هذا القرن . . فكانوا جميعا ـ على اختلافهم ـ أشبه بسلسلة ذهبية متصلة الحلقات تتنوع أدوارها وإسهاماتها. ولكنها تصب فى نهر واحد هو نهر المعرفة التى تقدس العقل، وتعلى راية الفكر، وتفتح أبواب العلم والتقدم، لكى تصنع الجسر الذى عليه يمكن أن تسير الحضارة العربية من التخلف إلى الرقى، ومن الجمود إلى الحركة ومن الماضى إلى المستقبل!

ودور زكى نجيب محمود فى هذا دور لايعلى عليه. .

فقد كان مثالا نادرا للتطابق الشديد بين الفكر والسلوك . . بين ما يؤمن فيه وما يعمل به . . بين استقامة العقل ونقاء الوجدان . . بين

موقفه مع نفسه وموقفه مع السلطة . . بين واجبه كمعلم وأستاذ وواجبه كمثقف لامع، ما أيسر ما تغويه أضواء الشهرة وتنحرف به إلى مواطن المنفعة والنفوذ!

ولكن الصلابة التى ميزت شخصية زكى نجيب محمود خلقا وعلما وعملا، هى التى حمته من الوقوع فى دوامة المراوغات الفكرية التى وقع فيها الكثيرون . . تحت ضغط تقلبات السياسة ومنافعها، وتحولات العقل العربى وانكفاءاته المتتالية، وهزائم المثقفين وخياناتهم . . فاستعصم بالصمت حين لم يكن من الصمت بد. وآثر العزلة كلما هبت العواصف والأعاصير، حتى لا يقول رأيا لا يؤمن به، أو ينحاز إلى موقف ليس على قناعة كاملة به، أو يضطر اضطرارا إلى تقديم المبررات والمسوغات كما فعل كثيرون.

وحين تعتدل الموازين، ويأتى الوقت الذى يتم فيه جرد الحسابات الفكرية لتعاملات القرن العشرين وتفاعلاته الحضارية فى العالم العربى، فسوف نتبين أن زكى نجيب محمود قد لعب دوره كاملا فى محاولة إخراج العقل العربى من تيه الصراع بين التراث والمعاصرة، وبين القديم والجديد، وأنه يقدم منهجا متكاملا لرؤية مشاكل العصر والمجتمع الذى نعيش فيه، لا يغمط الهوية العربية حقها، ولا يعفيها فى الوقت نفسه من مسئولية المشاركة الفاعلة فى إنجازات العصر.

وسوف يزداد وعينا بقيمة هذا المفكر العظيم، وما أسهم به فى دفع عجلة التنوير، والدعوة إلى العلم والأخذ بمنهجه أسلوبا وطريقة

للحياة لدى الفرد والمجتمع، كلما نظرنا حولنا.. فأذهلتنا سحب الظلمة الزاحفة، وأزعجتنا فرقعات المتشدقين بالتنوير دون أن يضعوا لبنة واحدة فى البناء.. فما أفدح خسارتنا برحيله!! رحمه الله...

المثقف والسلطة

كان موقف الدكتور زكى نجيب محمود من الحياة العامة، هو موقف المثقف الزاهد العازف عن الدخول فى الصراعات والمعارك التى يخوضها المثقفون حولنا الآن كل يوم.. سعيا وراء الشهرة، أو وراء النجاح المادى، أو وراء المنصب والنفوذ.. لم يفتعل معارك كالتى يفتعلها البعض الآن، بزعم الدعوة إلى التنوير ومحاربة الرجعية الفكرية، أملا فى ركوب الموجة والتسلق إلى القمة. ولم يرهن نفسه وفكره بجماعة أو شلة أو حزب .. بل تحمل مسئوليته كمفكر ومعلم يعرف أن مهمته هى تطوير المجتمع من الداخل، والنهوض بمستواه فكريا وعلميا، فى خط ثابت متصل، لا يتذبذب..

يقول الدكتور زكى نجيب محمود ـ فى حديث له معى جرى فى منزله قبل مرضه الأخير ـ إننى أشبه نفسى فى الحياة بواحد من هذه الأنماط الثلاثة من الصيادين:

صياد يلقى بشباكه فى بحر الحياة، فلا يأخذ من الصيد إلا أكبره.. فهو لا يرضى بالبساريا أو السمك الصغير.. ولو خرجت شباكه بمثل هذا الصيد الصغير فإنه سرعان ما يلقيه فى البحر، باحثا عن مكان آخر وعن صيد آخر أكثر دسامة وأكبر حجما.. فهو باحث دائما أبدا عن الصيد الكبير لايرضى عنه بديلا.. وفى أغلب الأحيان يحصل عليه. ولست على أى وجه من الوجوه هذا النمط، وإن كنت عرفت فى حياتى كثيرين منهم.

وصياد آخر يلقى شباكه وهو لا يبالى أى صيد جاء، كبيرا أم صغيرا، فكل صيد يمكن استخدامه. وكل سمكة يمكن أكلها بطريقة أو بأخرى.. بل إنه ليحسب حساب كل شئ ماكبر وماصغر، وما تضاعف حجمه وما تضاءل، وما علت قيمته أو تدنت.. ولست أيضا من هذا الصنف من الناس..

أما الصنف الثالث، وهو ماينطبق علىّ.. فهو مثل صياد لا يفتأ يأتى إلى نفس البقعة من البحر كل يوم، يلقى شباكه فيها فلا يعلق بها شئ.. ولكنه لا يكف عن المجئ إلى نفس المكان كل يوم، ولا يفكر فى تغيير شباكه أو تغيير موقعه..

تسألنى عن هذا الثبات والدأب، فأقول لك أنه نوع من قلة الحيلة.. فليست لدى تلك الموهبة التى يملكها الآخرون.. الذين ينجحون فى عرض بضاعتهم وبيعها بأغلى ثمن مهما تكن رخيصة تافهة.. ولست ممن يقدمون أنفسهم للسلطة أو للمجتمع.. وربما

كان هناك عامل آخر: وهو أننى آثرت أن أبقى بعيدا عن السياسة.. لم أدخلها ولم اقترب منها.. وبالتالى فلم أستفد منها ولم أدع للآخرين أن يستفيدوا منى!

هذا هو العملاق الذى فقدناه!!